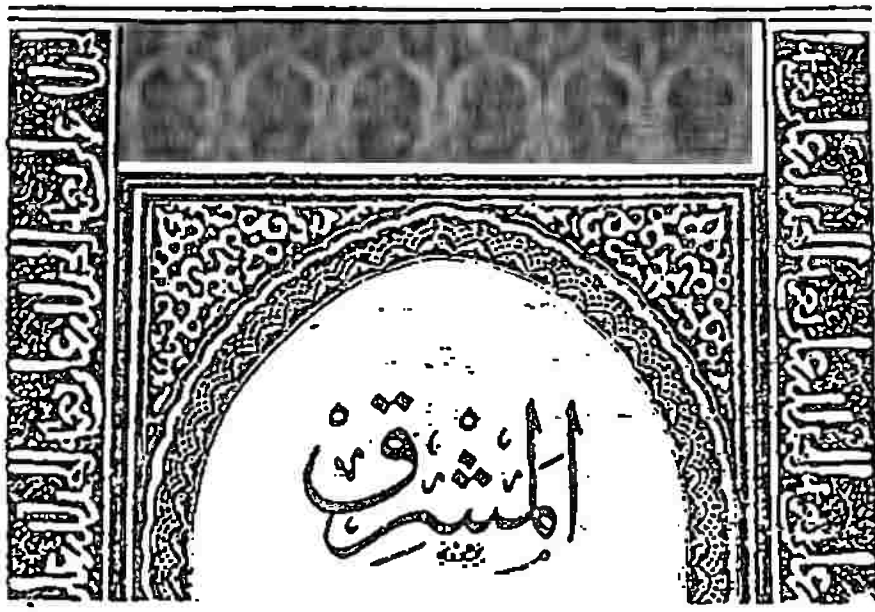

السنة الرابعة والثلاثون — تموز – ايلول ١٩٣٦

آراء وملاحظات

في عمل الحياة الرهبانية القديمة

على التقريب بين الكنائس والشعوب الشرقية

بقلم الاب بولس بيترس البولندي (لوڤن)

نهار العيد في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، بحضور نيافة القاصد الرسولي في سورية ولبنان ، بدأ حضرة الاب بولس بيترس البولندي محاضرات « معهد الآداب الشرقية » للسنة ١٩٣٥-١٩٣٦ ، بسلسلة من الابحاث كان الاقبال عليها اوضح دليل على قيمتها في نظر المستمعين ، وهم مختلفو النزعات والمشارب . وقد رأينا من حق قرائنا الكرام ان نبرّ لهم ، بايجاز قليل ، نص المحاضرة الاول ، مع الفصل الثالث الذي خصّ المحاضر العالم رهبان فلسطين وسورية وما اليهما. ف. ا. ب.

تأثير الرهبانية في مظاهر القوى الحيّة

كانت الرهبانية ، في ما مضى ، وحيثما وُجدت ، احدى القوى المنظّمة للجماعة المسيحية. فبدت ، منذ ظهورها الاول ، وقبل ان تتخذ حياةً مرتبةً قانونية ، مثلاً تحليلياً ، ان لم نقل ضرورياً ، للمؤسسة الكنسية . ولا يخفى ان

تلك السرعة العجيبة في انتشارها ، وتلك الوحدة النسبية في تطوّرها ، تدلّان على انها من متطلّبات الديانة المسيحيّة ، ان لم نقل من ضروريّاتها .

اما مصدر اهميّتها هذه فأمرٌ يتعلّق بجوهر المسيحية نفسها . وبهذا المعنى ، فاننا نتركه للّاهوتيين ، ولهم وحدهم الجدارة بدرس تكوين الكنيسة ؛ ثم للروحانيين فيحاولون ان يتقدّموا غيرهم في فهم اسرار الفداء الالهي . واما المؤرّخ ، اي ذاك المراقب الخارجي الذي يشاهد الحوادث من ناحيتها المنظورة ، فيستدلّ بآثارها الموضوعية الباقية ، فلا يسعه الا ان يتحقّق الأمر التالي :

ان ازدهار الديانة المسيحية بدا ، في كل مكان وزمان ، على اتصال وثيق بحيويّة الطريقة الرهبانية ، ايّا كانت مظاهر هذه الطريقة على مختلف العصور . نقول هذا قاصدين حيويّة المبدأ الرهباني ، ولا تُقاس هذه الحيويّة بعدد الرهبان ، ولا باعمالهم الخارجية ، ولا بقوّتهم المادّية ، بل بالنظام الداخلي ، وبالمثال الاعلى السامية اليه النفوس ، وبالدقّة والكمال في تطبيق القواعد الرهبانية . واذًا ، فقد اصبح من الواضح ان مصير الرهبانية في طائفة مسيحية متعلّق بمصير الطائفة نفسها ؛ تزدهران معاً ، وتنشران معاً ، وتنحطّان معاً كذلك . فالاتفاق بينها وثيق في النهضة والانحطاط ، حتى انه يجعل بينهما علاقة العلّة بالمعلول .

ولكن كيف يمكن تصوّر هذه العلاقة ؟

لا يخفى ان الرهبانية لا رسالة رسمية لها في الجماعة المسيحية . فلا تمثّل الا مجموعة من الرغبات الشخصية اتفقت ، وتسارقت ، وتنظّمت معاً ، فأتت بعمل مجيد نافع ؛ ولكنه يظلّ ، مهما يبلغ من جودته ونفعه ، من نوع النوافل والتبرّعات الإرادية . اما الاعمال المختلفة في حفظ العقائد والآداب سالمة بين ابناء الكنيسة ، وفي القيام بشعائر العبادة ، وممارسة الفضائل القويمة المسيحية ، فتظلّ من صلاحية السلطة الكنسية اي الحبر الاعظم ، والمجامع ، والاساقفة وسائر ارباب الرتب المتدرّجة . وليس للتاريخ ، في هذا المجال ، ما يأخذه على الحقّ القانوني . الّا انه لا يمتلك ان يتحقق امرًا واقعاً ، وهو ان رسالة الكنيسة نفسها لا تأتي ثمارها على تمام النفع الّا باستنادها الى بعض القوى

التنفيذية ، ولا يخفى ان في طليعة هذه القوى تبدو الطريقة الرهبانية . هكذا كانت مهمة الرهبانية في جميع العصور ، حتى عهد لم يكن ارتباطها يقومون بعمل خارجي . كانت الديورة القديمة ، في الصحاري الشرقية والمجاهل الغربية ، على عزلتها وسكونها وانقطاعها عن العالم ، موائل للتقوى والصلاح تُحفظ فيها الروح الانجيلية فتتجدّد ، وتردهر ، حتى يتمّ اشعاعها الى الخارج .

وقد ظهرت آثار هذا العمل في مناحي الحياة المسيحية جميعها .

تأثير الرهبانية في نشر الايمان ، وخدمة المسيح

واني اودّ ان يقوم يوماً عالمٌ مختصّ بهذه الشؤون ، فيلقي نظرة شاملة على تاريخ الرهبنات ، ويطلعكم على نصيب رهبان الشرق في نشر الانجيل بين الاجيال المتأخرة ، ولاسيما في آسية الوسطى ، وعلى ما قاسوا من مشاقّ ، وما قاوموا من عقبات في سبيل حفظ الايمان في تلك المناطق المنتزعة من الامبراطورية الرومانية ومن الممالك المسيحية القديمة . يطلعكم على الخدمات العديدة المتنوّعة التي ادّوها للمدنية في تهذيب الشعوب ، وفي العمل على تقدّم الفنون والعلوم ، وفي تخفيف الويلات والمذابات البشرية ، وفي سائر الاعمال المجيدة التي ترمي اليها جهود الحضارة المسيحية .

وهو موضوع واسع يعوزنا الكثير من موادّه ، فلا نكاد نرى فيه الّا لمحات عامّة تمتّ احياناً الى الاسلوب الخطابي اكثر منها الى التدقيق العلمي والتحريات الرصينة . ولا يخفى اننا ، في هذه اللمحات القصيرة ، لا يمكننا الّا لمسَ الموضوع منصرفين الى نقطة خاصّة منه ، وهي « عمل الرهبانية القديمة على التقريب بين الكنائس والشعوب الشرقية » . ولا بأس بان نتوقّف لحظةً في تحديد هذه النقطة :

من مزايا الطريقة الرهبانية القديمة ، التي تلفت نظر المراقب المتنبّه ، تلك الوحدة الاساسية في روحها ونظامها ، أنّى وُجدت ، والى ايّ شعب انتمت . لا شكّ في ان الملاحظة السطحية قد تقوده الى الحكم بتنوّع مظاهرها الخارجية . على انه لا يلبث ان يتحقّق ، وراء هذه المظاهر ، وحدة داخلية

في جوهرها ومبادئها . لنقابل مثلاً بين ما يبدو من مظاهر النظام والترتيب في الجماعات السلتية والتالية - الرومانية ، وما يظهر من طرق حياة النساك في طيبة وفلسطين . من الحق اننا نرى الفوارق العديدة . ولكن من الحق كذلك ان هؤلاء الرهبان والنساك كانوا يعيشون في عالمين مختلفين كل الاختلاف حتى لا تكاد تُذكر الى جنبه تلك الفوارق . وهو ما يدفعنا الى القول ان الديورة كانت اهم المؤسسات في تخفيف ما يفصل بين الشعوب من تخالف وتعاكس في الاخلاق والعواطف ، والتقاليد ، والاذواق ، والعادات ؛ حتى اذا انتقل احد مريدي القديس باسيليوس او القديس باخوميوس الى احد ديورة الغرب — وليس هذا بالفرضية الخيالية بل اننا نراه في حياة كثير من الاشخاص الحقيقيين — كان يجد نفسه اقل اغتراباً من اي لبناني ينتقل الى جرمانية او ارلندة . ولنُعد اليوم هذه التجربة نجدها تأتينا بالنتيجة نفسها . وان يكن ، على هذه الارض ، اماكن لا يفسدها التغيير الآخذ من المظاهر البشرية جميعها ، فانما هي ملاجئ الرهبان القديمة . ومن منا ، اذا ساقه الحظ مساء الى احد ديورة شارتر الصامتة ، او سمع رهبان الموارنة او الارمن يتلون صلوات الليل في سكون كنائسهم ، لا ينتقل فجأة الى الماضي البعيد ، فيتمثله امامه حياً ، وقد مات في مظاهر العالم الدنيوية جميعها ؟ . . .

بفضل هذه الوحدة الجوهرية الدائمة في روح الرهبنات وتقاليدها ، أثر الرهبان في الحياة الدينية تأثيراً تجاوز الحدود الوطنية والشعبية الخاصة . وان نكن لا نهتم اليوم بقياس عمق هذا التأثير وسعته ، فذلك لانه كان عاماً شاملاً عميقاً حتى اننا تعودنا مظاهره فخلناها طبيعية ، فنسينا اصل كل ما ادخلته في حياتنا من معلومات وعادات وطرق عبادة .

من ذلك ان الصلوات القانونية المفروضة تلاوتها يومياً ، في عهدنا هذا ، على كل الحاصلين على الدرجات الكهنوتية الكبرى ، هي بقية من مفروضات الطرق النسكية القديمة تقدمت شيئاً فشيئاً حتى امتدت على الكنيسة كلها .

على ان الصلوات من الطقوس الخارجية . فلننتقل الى غيرها ، ولننحدر الى اعماق الحياة المسيحية ، فنرى ان من شاء من المؤمنين ان يوافق بين حياته العادية

وتعاليم الانجيل، لا مندوحة له عن اتخاذ اساليب عبادة نشأت في ظلال المناسك، وتثابرت حتى عصرنا، في وحدة دائمة بفضل التقاليد الرهبانية. لقد قاست كثيرًا من المتطرفين وطلاب الغرائب، كما علق بها كثير من الغموض بفضل ارباب النظريات. بيدَ ان التقوى المسيحية، على رغم المجانين وعلى رغم المتمثلين، لا تزال تستمدّ حياتها المثمرة من تلك الطريقة العملية في العبادة التي نشأت في اقدم الجماعات الرهبانية.

ولا يعني هذا ان الديورة والمناسك كانت محتكرة لطرق العبادة المذكورة. لقد كان الكهنة يدعون اليها في الكنائس، والمعلمون يتكلمون عنها في المدارس، واللاهوتيون يستخرجونها بالقياسات المنطقية... على انها في الديورة كانت تتصف بصفة نظام مقدس تفرضه السلطة الحاكمة، ليُطبَّق بدقة تامة لا يزول ولا يتحوّر، بل يُصبح الهمّ الوحيد في الحياة كلها. وبفضل هذا النظام النسكي كانت الرهبانية تنشر نفوذها، وتُشعّ تأثيرها الصالح فوق الحواجز والحدود فتصل، في كل مكان وزمان، — الا بعض اختلافات عرضية ثانوية — على اقرار مثال اعلى واحد للقداسة الكاملة.

امثلة من تأثير الرهبانية في الغرب والشرق

على ان هذه الاعمال تتفاوت سعةً وعمقًا. وقد رأينا ان نورد بعضها، دلالةً على ما قدمناه من اثر الرهبان، بادئين ببلاد الغرب:

قبل ان يهتمّ علماء الحقّ القانوني بجمع التشريع الرهباني القديم في قالب واحد، كان النظام الموحد في السلطة الكنسية يعزز حركات التطوّر المتنابعة الرامية الى هذا الاصلاح. وذلك ان الرهبانيات القديمة من بندكتية واغوسطينية، وسيسترسية، ومن بعدها الرهبانيات الدومنيكية والفرنسيسية، كانت قد ملأت انحاء اوربة ديورة ومناسك تخضع كلها لسلطة واحدة، او على الاقل، تتصل بعضها ببعض بالسير على قاعدة واحدة. فكان لها بذلك السهم الاوفر في انشاء هذه الوحدة الحيّة التي عُرفت بها المسيحية. بل كان من نصيبها ان تفرض على المسيحية، في احيان خطيرة، قاعدةً واحدةً للسير. وهذا ما

اظهره السيد بواسونادا (P. Boissonade) عندما برهن على ان فكرة الصليبية الاولى برزت من رهبان كلوني (Cluny) ، نحو خمسين سنة قبل مؤتمر كليرمون ، اذ لفت هؤلاء الرهبان نظر امراء اوربة الى الخطر المحدق بهم من جهة مقاربة اسبانية . وكذلك كان لاحد علمائكم الشبان ، الدكتور انور حاتم ، ان يعرض الفكرة نفسها في أطروحة فازت باهتمام العلماء الاختصاصيين ، ودلت على ان فكرة الصليبية الواسعة ، وذاك التاريخ الحافل بالملاحم مدة ثلاثة قرون ، من ثمار الرهبانية الكلونية [1] .

من الحق ان رهبان كلوني يتنصلون كل التنصل من هذا الشرف ، لو شئنا ان نحملهم تبعة ما جرته تلك الحروب . على انهم لا يسألون الا عن الفكرة السامية التي دعوا الى تحقيقها ، لا عما لحق بها من مطامح شخصية ، ومطامع سياسية ، حرفت غايتها . ولا يخفى ان القصد الاساسي من الفكرة الصليبية لم يتجاوز العمل على حماية المسيحية من حملات قد تناثل خطرا حملات القرن الثامن . واذا فقد كان من الواجب ايقاظ شعوب اوربة المسيحية الى الانتباه لهذا الخطر الداهم ، وحملهم على الاستعداد لمقاومته بكل ما تتطلبه تلك المقاومة من جهود وتضحيات ، ثم حمل امراء اوربة انفسهم على تناسي احقادهم الشخصية وتوحيد كلمتهم في سبيل الخير العام .

هذه المعجزة توصل الى تحقيقها رهبان كلوني !

ولو كان لذوي الآراء السمحة والنيات الصالحة ، في عصرنا هذا ، من اولئك الذين يسعون في خلق ضمير ادبي شامل للدول جميعها ، لو كان لهم ان يتأملوا ، بكل تجرد واخلاص ، مثال الرهبان المذكورين لأدركوا نواقص اساليبهم ، ولماذا لا يظفرون بالنجاح في كل ما يبذلونه من جهود خليقة بالثناء .

اما في الشرق فكان مسرح التأثير الرهباني اضيق منه في بلاد الغرب . وذلك لاسباب هي اوضح من ان تحتاج الى تفصيلها . منها تلك الحالة الضيقة التي وُجدت فيها الكنائس الشرقية على اثر الفتح العربي ، فدُفعت ، في مقاومتها الاخطار الخارجية والعمل على حفظ كيانها ، الى الالتفاف على نفسها ، والحياة

١) راجع *Anal. Boll.* 51 [1933] p. 431 ؛ والمشرق ٣٢ [١٩٣٤] ١٧٩

ضمن حدودها القومية . وهكذا غدت الكنائس الشرقية ، وفي اعتقادها ان كلّ ما تمتاز به من اختصاص بالعقيدة ، والنظام ، واللغة ، والطقس ، ضروري في الدفاع عن استقلالها وحفظ كيانها . وكان لا بدّ من ان يقود هذا الاختصاص المستقلّ الى نتائج متطرفة . وان يكن لم يتوصل اليها دائمًا ، فالفضل بذلك يعود لبعض حواجز كان من اشهرها وافعلها الطريقة الرهبانية . فان ما بقي من الوحدة الاساسية في الروح المسيحية حقًا ، في اكثره ، الى الديورة ، فحُفظ فيها . اما طريقة هذا الحفظ فقد يطول بنا المجال اذا ما دخلنا في تحليل عناصرها ، ووصف عواملها المختلفة ، لانها كانت تتنوع بتنوع البيئات والازمنة ، منتصرة ، في غالب الاحيان ، على ما تلاقيه من عقبات متتابعة . وكفانا دلالة على مقدرتها ان نذكر ما قامت به من المحافظة على الايمان والآداب حيثما وُجدت .

وهناك أمر مشترك بين جميع الطوائف المسيحية الشرقية ، اية كانت نزعاتها الاستقلالية ، ومظاهر انكماشها ضمن حدودها الخاصة ، وهو ان آدابها عاشت على موضوع اساسي واحد كانت تتناقله بعضها عن بعض ، وتنشره في تقاليدها ، ولا سيما ما يتعلق منها بحياة القديسين وعجائبهم . حتى امكننا القول انه كان بينها اشتراك واضح في هذا الموضوع . وهذه نقطة مهمّة قلما اهتم بشرحها تاريخ الآداب . وهو يكتفي عادة بتحقق الشبه بين ادب طائفتين او امتين ، دون ان يتعمّق الى التفتيش عن اسباب هذا الشبه ، وكيفية حدوثه منتهيًا الى زمانه ومكانه . ذلك اننا كثيرًا ما نطبّق على الماضي ما نأخذ به اليوم من مظاهر التأليف العقلية ، فلا ننتبه الانتباه الكافي لما كانت تتطلبه في الزمن هذه المشاركة في الموضوع الواحد . من اسهل ما نتحققه اليوم في عالم الادب تلك المبادلات الفكرية بين البلاد المجاورة ، او المتباعدة ، بفضل ما تنشره المطابع من كتب ، وما تقوم به المكاتب من تسهيل الاطلاع على المخطوطات نفسها ، وبفضل ما اصبح للترجمات من مرافق متنوعة بوضع كتب القواعد والقواميس ودوائر المعارف . اما في ذلك العصر فلم يكن شيء من هذه التسهيلات . كان المترجم يجهد ذهنه في نقل النصّ عن اللغة الاجنبية ، ولا

معين له الا ذاكرته وطول تفكيره . وقد لا يفهم المقصود تماماً ، وقد لا يحسن التعبير عما فهم في كثير من المشاكل التي نحلها اليوم بفتح القاموس ، او الفراماطيق ، او دائرة المعارف . واذا حسن حظه ، قاده الله الى — او قاد الله اليه — احد العلماء المتضلعين من اللغة التي يترجم عنها ، او المطلعين على التقليد الذي ينقله . ولنجتهد في تصور كيفية هذا العمل المشترك ، فلا نلبث ان نتحقق انه يصعب وجوده الا في البيئات الثقافية الحافلة بعلماء اللغات ، ولم تكن هذه الا في الاديرة الشرقية الكبرى . ولا يشك عاقل اليوم في ان مكاتب الرهبانيات في الشرق — وفي الغرب مدة القرون الوسطى — هي التي حفظت حركة التبادل بالكتب وبالآراء فوق الحواجز التي اقامتها انقسامات الطوائف المسيحية . ومن ثم فقد أدت خدمة عظيمة للثقافة عامة ، ولحفظ جوهر التقليد المسيحي في الكنائس الشرقية .

وكم كنا نود ان نزيد ان الطريقة الرهبانية قامت ، عن سابق تصور وتصميم ، بهذا العمل الحفظي . ولكن الحقيقة لا تسمح لنا بهذا الحكم . بل ان التاريخ يضطرنا الى القول ان المشاحنات الدينية التي مزقت الشرق المسيحي وجدت في الديورة عدداً من اشد ارنابها تعصباً . ولا ننسى عناد الرهبان الاقباط ، وقد اهاجهم ديوسقورس والشنوتي ، فحالوا دون نجاح كل ما بذله الاحبار الاعظمون والامبراطرة الصحيحو العقيدة من جهود متتابعة في سبيل تخفيف ذاك النزاع الذي ادى الى الانشقاق المنوفيزيتي ... ولا يسعنا المجال لذكر دور الرهبان في سائر الانشقاقات والهرطقات من البلاجية ، الى الجانسينية ، الى الاورثجينية ، الى القول بالمشيئة الواحدة ...

وهذا كله صحيح ، واقعي ، مؤلم في صحته . بيد اننا نجتهد في ذكره بطريقة ابعد ما يمكن عن الاندفاع والتزيد من تبعة القائمين به ، وان كانوا مسؤولين عنه لا ينالهم عذر في ذلك . انما خطأهم ، في تعاميهم عن الحق ، لم يكن يرمي على الغالب الى الهدم والملاشاة . بل بالضد فانهم كانوا يتصورون في هوسهم انهم ، وحدهم ، يظلون امناء في المحافظة على ايمان الرسل ، والمجامع الاولى . وكانوا في عملهم على اقناع خصومهم ، يظهرون تعاليم الآباء القدماء.

وملافنة الكنيسة . فكان من ذلك انهم لكثرة ما فتشوا في التقاليد عن اسلحة يحاربون بها ، عملوا عن غير قصد ، على حفظ آثار هذا التقليد ، وعلى نشرها بين الناس سواء أكانوا من مذاهبهم المنشقة ام لا . وهكذا دخل قسم كبير من هذا التقليد في آثار المسيحية الكاثوليكية . فرأينا في كتابات طائفة من مؤلفينا في الزهد والحياة النسكية ، كثيرا من الآراء ، والحكم ، والمواعظ مأخوذة من «جنسة» المنوفيزيتيين . ومن الراجح ان ذاك المؤلف النابغة ، بل ذاك العبقري السامي ، المهيمن على اللاهوت الروحاني بجملته ، ذاك الذي كرمته القرون الوسطى باسم ديونيسيوس الاريوباجي ، كان يعيش في احد ديورة سورية الشمالية ، المنتمية الى البدعة اليعقوبية .

. . .

ولنقف عند هذا الحد ، ذاكرين من هذه اللمحات السريعة المقتضبة حتى الجفاف ، ان الطريقة الرهبانية ، بفضل نظامها التقليدي ، كانت قوة فعالة في حفظ الوحدة المسيحية . تتحقق ذلك ، بنوع اختياري ، اذا ما درسنا ، دون تحامل ولا تحيّز ، حياة احد القديسين المنتمين الى الكنائس المنشقة . كحياة القديس نيل سرسكي الذي عاش في بلاد المسكوب على عهد إيڤان الرابع ، في عصر اضطراب وارهاب اشبه بالعصر الذي تنوء تحت عبئه روسية في ايامنا . فأنشأ ديرًا على نهر سورا ، وسنّ فيه قاعدة مشبعة بروح التجرد الانجيلي ، قد تزيد في تقشفها وصعوبتها على اشد القواعد التي كان قد عرفها ومارسها في جبل أتوس . هذا واحد من امثلة يراها مطالع تراجم حياة هؤلاء النساك ، فيوخذ بما فيها من نفحة اخلاقية سامية حتى ليغال نفسه في مقرّ المثال الاعلى الذي كان يتمثله مترجمو القديسين في الغرب . ثم يجذبه التضادّ ، فينتقل الى تفهّم الاسباب التي حطّت بالكنيسة الانكليكانية فادّت بها الى هذا الانحلال السريع ، فيرى منها انعدام الحياة الرهبانية . ذلك ان الانكليكانية اعتقدت ان بامكانها حفظ الإطار الكنسي بما فيه من تدرّج الرتب ، والنظام التعليمي . . . ولكن لم تدرِ انها بالغاء الحياة الرهبانية هدمت ركنًا قويا من اركان الحصن الذي كان جديرًا بان يحميها . . .

فلسطين وسورية

لا يمكنني ، في هذا الحديث القصير ، ان اعرض ، ولو اجمالا ، لتاريخ الرهبانية في الشرق . اقول هذا في اول الكلام كي لا ازعج انتباهكم بفاجأة مؤلمة . انما غايتي ان اظهر ناحية غامضة من عمل الرهبانية . ولا اخفي عليكم ان المشهد العام يضيق مجاله من هذه الناحية الخاصة ؛ ولهذا فلا تنسبوا لي المسؤولية كلها اذا ما رأيتموه متقطعاً غير كامل . فهو ناقص من حيث الاتساع ، ناقص من حيث التفاصيل والدقائق ، وهذه لا تظهر في لمحة اجمالية مصغرة . وعليه فلن تروا اليوم — ولن يكون لي الحظ بارائتكم — تلك المناسك الساكنة المطمئنة التي سعدت بان ليس لها تاريخ ؛ ولا تلك التي حفظت النظام الرهباني بدقة تامة تحولت شيئاً فشيئاً الى عادة مستمرة كانت تحاذر ، احياناً ، من الحياة والاقدام .

اما حيث ظلت تلك الفضيلة الرهبانية متشحة مزدهرة فقد آتت ، بعض الاحيان ، ثمارا يانعة خارجاً عن محيطها الضيق . وان من اجل الخدم التي ادتها الرهبانيات الشرقية للوحدة المسيحية انها هذبت ورتبت تلك النخبة من الرجال السامين الذين خرجوا من صفوفها ، او من مدرستها ، فاعتلوا كرسي الاسقفية فكانوا فخراً للكنيسة جمعاء . وكم اخرجت فلسطين وسورية من امثال القديس ابيفانيوس ، والقديس يوحنا فم الذهب ، وتيودور المعروف بابي قرة ، راهب مار سابا ثم اسقف حران ، الذي ترك عدة آثار في الدين والادب . وقد درس هذه الآثار واظهر شخصية كاتبها الممتازة ، هنا في بيروت ، استاذنا المأسوف عليه كثيراً الاب لويس شيخو ، والاب العالم الخوري قسطنطين الباشا . ولم يكن ابو قرة آخر حلقة في هذه السلسلة المجيدة . بل هناك طائفة من هؤلاء الرهبان الاساقفة يتعلون باحقاب التاريخ القديم للكنائس الشرقية . بيد ان سرد هذه الاسماء ، واكثرها جاف لا هيئة له ولا لون ، يضجركم ويضجرني كذلك . ثم اننا نتعرض ، اذا ما سردناها ، لما يتعرض له النقاد اذ يعدون

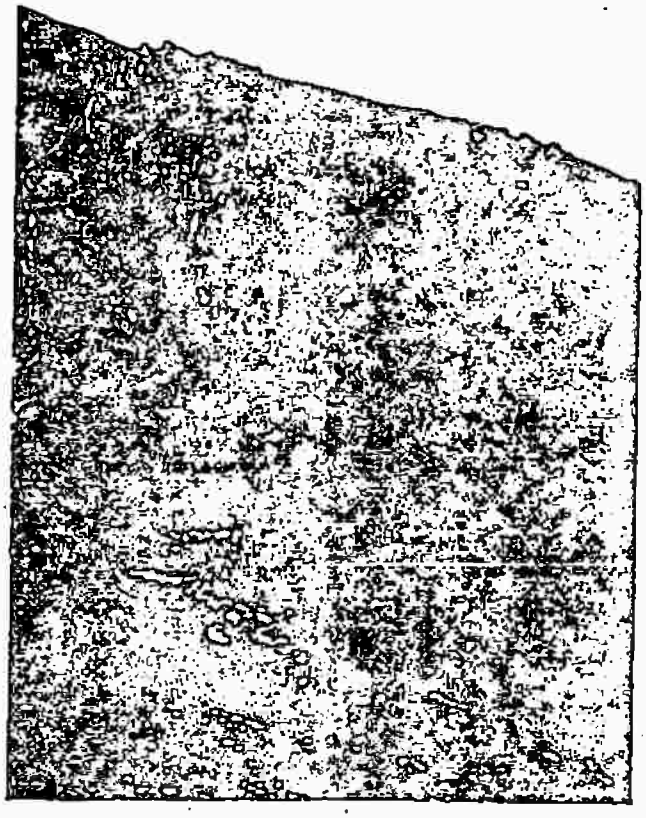

الرسم ١ – منسك الغزل ، قرب زحلة . بقايا دير قديم محفور في الصخر

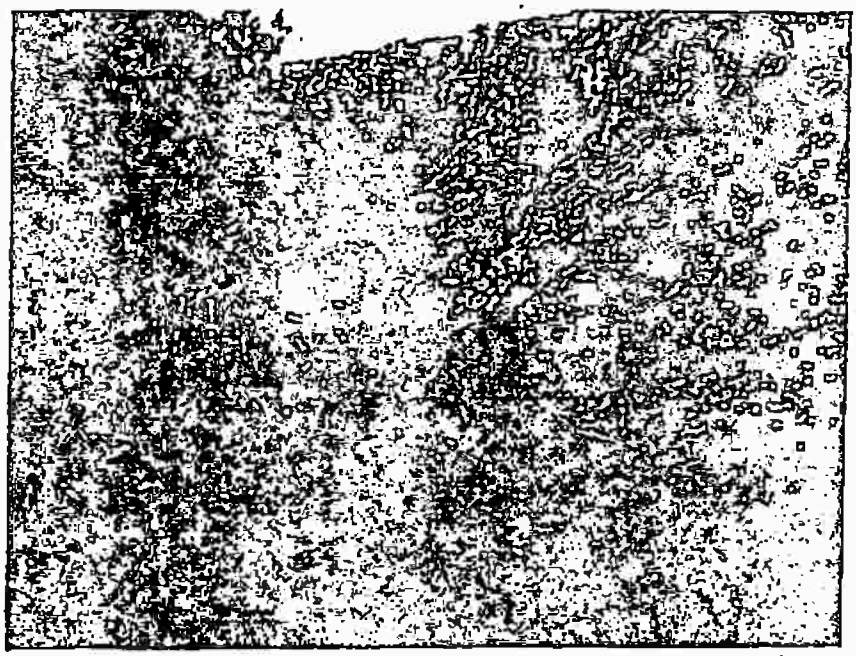

٢ – دير قنوبين – دير قديم في الوادي المقدس « قاديشا » ، وقد اصبح ، في ما بعد ، مقاماً لبطاركة الموارنة

الرسم ٣ – دير آخر من ديورة انرادي المقدّس : دير قزحيا

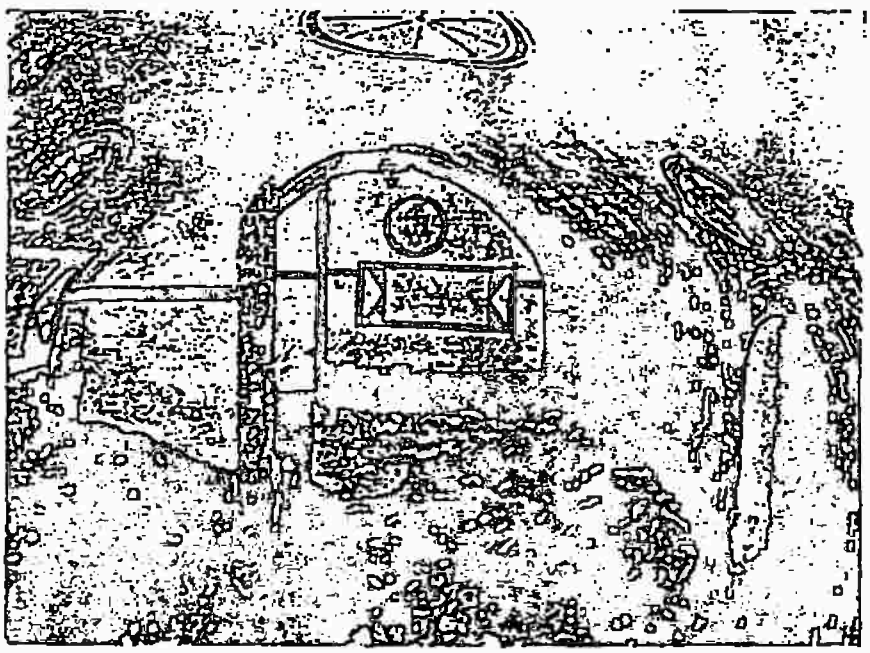

الرسم ٤ – سيد مدفني رهبانٍ في حمص يرقى الى السنة ٤٥٠

الشخصيات الادبية ؛ فانهم ينسون بعضها دون شك ، وبالتالي يتعرون عليهم احتجاجات المنسيين او من يلوذ اليهم . وذلك ان علماء الفلك لم يتوصلوا ، حتى الآن ، الى ايجاد مرقب جبار يمكنه التفتيش عن جميع هذه الكواكب .

ولكن ما لي اطيل في الكلام عما لن اتكلم عنه! فلاقتصر ، ولاتجه وجهة القمم البارزة .

جبل سينا

من هذه القمم الشامخة التي تجذب نظر المسافر الى التجه في الفضاء الافق البعيد ، قمة جبل سينا ، وهو الاول في تاريخ الرهبانيات . كان مقصداً لزوار الاراضي المقدسة قبل السنة ٣٨٣ . وفيها زارته الشاخة ايتيريا ، فوصفته وصفاً شائقاً بلغة لاتينية لذيذة باغلاطها وتراكيبها المضطربة . جابت ايتيريا قفر فاران كله ، وصعدت مرتفع سينا الشامخ ، ثم زارت وادي الموسجة الملتهبة ، وعادت صاعدة حتى حوريب . . . وقد وصفت كل ذلك بدقة عجيبة واخلاص يأخذ من المطالع فلا يكاد يقلع عن قراءته الا بأسف . اما ما يهمنا الآن فهو ان الشاخة الاسبانية تقول ان الرهبان منتشرون في الجبل المقدس وضواحيه كلها ، وان بعضهم ادركوا الشيخوخة القصوى من حياة قضوها كلها في ذاك القفر المبارك . واذاً فقد بدأوا حياتهم في عهد قريب من بدء الرهبانية المصرية .

وقد نزلت ايتيريا في ضيافة هؤلاء النساك . فقضت الليل في مسكن متصل بديرهم ، وجلست على مائدتهم ، وحضرت صلواتهم . . . وكلها براهين على انهم لم يكونوا متقيدين بشيء من انظمة سيتي التقليدية ، ولا من انظمة الطريقة الباخومية . كيف لا ، وهذه الانظمة لا تسمح حتى بدنو النساء من المناسك . تخيلوا امرأة ، مهما بلغ من رصانتها وقداستها ، تزور دير تابين مثلاً . . . أو لا يتهارب الرهبان من الرجس ! ! !

بيد اننا نرى في سينا ، بعد مرور ايتيريا بزمن قصير ، منسكاً يقترب من ديورة الرهبان المجردة . واهم شخصياته القديس نيل ، المشهور بتآليفه النسكية العديدة ، وبتاثيره في النفوس التقية التي كان يديرها ويرشدها برسائله . وقد نسب

اليه نحو الف رسالة لا تصح نسبة اكثرها ، كما انه لم تصح لدينا صلاته الكتابية وغيرها بالقديس يوحنا فم الذهب . على ان الناس لا يقرضون إلا الاغنياء . ولو لم يكن للقديس نيل رسائل صحيحة لا غبار على نسبتها لما أضيف اليه هذا العدد الضخم . وكفانا دلالةً على تأثير جبل سينا، المُشعّ الى ما وراء حدوده حتى انحاء الشرق المسيحي جميعها ، تلك الشهرة الواسعة التي رافقت اسم القديس نيل ، واسم خليفته من بعده ، القديس يوحنا كليماك .

اما الدير الحالي فيظهر مبنيًا ، او مرمّماً ، على عهد يوستنيانوس ، بين السنتين ٥١٨ و٥٦٢[1] . وقد بقي في هندسته الاساسية كما كان في ذاك العصر . لا شكّ في انه زيد عليه بعض الاقسام ، ورُمّم البعض الآخر . ولكنه ظلّ على مظهره الاولي اجمالًا ، فلم تؤثر فيه حوادث التخريب والنهب ، ولم تغيّر منظره القديم الاحداث الطبيعية نفسها . وهي معجزة الحفظ تعجب بها سائر انحاء العالم المسيحي متأسفة ألا يكون لها مثلها .

وقد حفظ دير سينا كنوز فنّ وأدب لها قيمة الذخائر المقدسة . ولا يخفى ان مكتبته اقتبطت طويلًا بحفظ اثمن مخطوطات العهد الجديد ، تلك المخطوطة المشهورة في العالم كله باسم « النسخة السينائية » (*Codex Sinaiticus*) . بيد ان هذه المخطوطة آلت نظر احد أمناء المكتبة فأراد ان يتخلّص منها ، وكان على وشك احراقها مع غيرها من الوثائق القديمة ، عندما ادركها تيشندورف فانتشلها واحملها الى بطرسبرج عاصمة بلاده . وبعد ان اقامت نحو نصف قرن في المكتبة الامبراطورية ، رأت حكومة السوفيت ان تتخلص منها بدورها ، وكانت بحاجة الى مال ، فباعتها ، دون أسف ، من المتحف البريطاني .

ظلّ دير سينا ، مدة القرون الوسطى ، يجذب اليه السيّاح والزوّار في سلسلة غير منفصمة من جميع انحاء الشرق والغرب . وكان الرهبان متهيئين لاستقبالهم واضافتهم . وقد شاهد انطون الپلیزني ، نحو السنة ١٥٨٠ م ، في المضافة القائمة في اسفل الجبل المقدس « ثلاثة رؤساء عارفين باللغات اللاتينية

---

١) راجع H. Grégoire, *Bull. Corr. hellén.* 31 [1907] p. 327-34

واليونانية والسريانية والمصرية والعراقية ، وكثيرا من التراجمة لكل لغة من اللغات»[1]. وانها لشهادة واضحة للاشتراك بالايمان والعواطف بين جميع الشعوب النصرانية ، اشتراكا كان في هذه الديورة اقوى منه في أي مكان آخر. وكان لكثير من تلك الشعوب رهبان من جنسهم دائمو الاقامة في جبل سينا.

هذا، ولنصرف النظر عن التدقيق الكثير في ما كان يهيب بهؤلاء المسافرين الى زيارة جبل سينا . وهل كانوا جميعهم ، في تقواهم الحارة الساذجة ، يجذبون خاصة بمظمة التذكارات الدينية والتقليد المسيحي ، ام كان البعض منهم ينشدون القديس يوحنا كليماك ، والقديس نيل ، وموسى ، ولوحي الاشتراع ، والعلّيقة نفسه ، ليسجدوا راكعين مؤمنين امام تلك القديسة كاترينة ! على أن ذاك التقليد ، الذي كان ينساه بعضهم ، كان يظل ساهرا على العالم المسيحي ، مرفرفا فوق هذه الامكنة المقدسة ، عاملا عمله النافذ الحي في جميع النفوس الجديرة بتفهمه .

ولا يخفى ان جبل سينا يتعلّق جغرافياً بالقطر المصري. على ان التاريخ الكنسي يعتبره من ملحقات فلسطين. وهذا ما صانه من الالتحاق بالبدعة المنوفيزيتية.

قفر بهوذا

اما في الاراضي المقدسة نفسها فكانت الحياة الرهبانية على ازدهار كذلك. ويُنسب تأسيسها الى القديس هيلاريون العزي المتوفى في السنة ٣٧١ ، بعد ان ادهش العالم كله بمعجزاته ، مدة نصف قرن ، ولاسيما بمعجزة حياته التقشفية . وقد اثبت كل هذا القديس ايرونيموس في ترجمة للقديس هيلاريون ، كتبها في بيت لحم، نحو السنة ٣٨٦، وشكا فيها سلفاً انها ستثير نباح خصومه الذين شبههم بكلاب سيلا ! ومن الحق ان النقاد، دون ان يلجأوا الى النباح ، يخطرون الى الاعتصام بالشك والتردد احياناً في قراءتهم هذه الترجمة. ولكني أقف هنا ، دون تفصيل، لئلا أنسب الى الرغبة في تحديث تلك الشخصية الجبّارة ، شخصية القديس ايرونيموس. اما ما يمكن ترجيحه ، دون تعرّض للوهم ، فهو ان القديس

(١) طبعة Gayer ، ص ١٨٤

هيلاريون ، وقد عرفه شخصياً القديس ابيفانيوس اسقف قبرس ، كان يعيش عيشة النساك في ضواحي غزّة ، مع بعض تلاميذه. ولكنّ مثله الصالح واعماله الباهرة لم تحدث ذاك الصدى البعيد الا بفضل تلك السيرة الرائعة التي كتبها القديس ايرونيموس . وذلك ان التاريخ يفيدنا ان غزّة وضواحيها كانت مأهولة بكثير من الوثنيين المتعصبين ، الى اواخر القرن الرابع. حتى ان اسقفها القديس بورفيريوس لم يلاقِ فيها إلا جماعة مسيحية قليلة العدد ، ولم تكن فكّرت بعد باقامة ايّ كنيسة لذكر من كان فيها صاحب المعجزات المذكورة . هذا ما كان في ضواحي غزّة . اما في غيرها من الاماكن فقد انتشر القول ان الطريقة الرهبانية الفلسطينية بدأت في بادية الاردنّ .

وهو ثابت أنه ، قبل منتهى القرن الرابع ، كان ذاك القفر الجبلي المنحدر شيئاً فشيئاً من أورشليم الى الاردن والى البحر الميت بأهله العدد الضخم من الرهبان والنساك[1] . وكانوا يجتمعون في مراكز تختلف اهمية ولكنها تنتسب كلها لاسماء شهيرة كالقديس يوحنا شوزيبة ، والقديس شاريتون ، والقديس افتيموس ، والقديس جيراسيموس ، والقديس سابا ، والقديس تيوضوسيوس ، وغيرهم . . .

وقد كان من حظّ كثير من هذه الديورة ان يكتب تاريخها كيرلس السكيتوبوليسي ، على ان الحوادث ، التي يرويها المؤرخ ببساطة وطبيعة لا يشوبها التقليد الرهباني ، كانت موضوعات وامثلةً لكثير من الروايات المبالغ فيها او المخترعة ، زادها من اتى بعده من الكتّاب. حتى اصبح من الضروري ، اذا قرأناها اليوم أن نعمل على فرزها من تلك الحكايات التافهة والاساطير الضعيفة التي تضخّمت حولها. ولا يسعنا الان إلا الاشارة الى هذا التاريخ النفيس للأخذ. ولا يخفى عليكم ذاك التطوّر الذي حصل في جماعات النساك — واشهر ناسك فيهم القديس افتيموس — فأحلّ محلها الطريقة الرهبانية المنظّمة، السائدة اولًا في دير القديس تيوضوسيوس . واني ألفت نظركم الى التأثير المهمّ الذي

(١ اطلب Génier, *Vie de S. Euthyme*, chap. I

نالته بادية الاردن في القرن السادس ، ولا سيما في العمل على التقريب بين ابناء الشعوب المتباينة ، وتحقيق الاخوة المشتركة ، وهي من مبادئ الرسالة الرهبانية. فقد كان للاردن ان يفوق في هذا على سينا ، لانه اقرب الى الحضر واسهل منالاً من ذاك الجبل المبارك .

ولقد كانت المؤسسات النسكية ، في مصر ، برهنت عن مقدرتها في صهر العناصر والثقافات المختلفة في بوتقة واحدة . فكان ، في جماعة القديس باخوميوس الاولى ، من الحبش والارمن والرومانيين ، بل كان فيها — وهو امر عجيب — عدد من الاسكندريين المدنيين ، قبلوا بالخضوع لاكثرية من القبط بعيدة كل البعد عن ثقافتهم اليونانية . على ان هذا المثل لا يظهر معزّزاً بثان . بل اننا لا نعرف كم استقام « منزل اليونانيين » هذا في تابين. وهناك في النطرون ، قام دير حبشي مجاوراً لبقايا ديري عمون والقديس مكاريوس . وفي سيتي نفسها ، قام دير سوري ؛ ولكن الاخوة الرهبانية لم يكن لها الاثر المهم في انشاء هذا الدير.

اما في بادية يهوذا فقد كان لهذه الاخوة تأثير أعمق، وعمل اقوى، لأن الزوّار والسيّاح كانوا يأتون الديورة من جميع انحاء العالم المسيحي شرقاً وغرباً ، وكثير منهم يقصدون هذه الارض المقدسة لينالوا مزيد الصلاح والقداسة. ولنا في اصل مؤسسي بعض الديورة المشهورة على شاطئ الاردن ، شواهد عدّة على تنوّع جنسيّات الزائرين. فالقديس افتيموس ، والقديس سابا ، والقديس تيوذوسيوس كانوا من مهاجري ارمينية وقبادوقية. وغيرهم كثير كانوا يقصدون الديورة لزيارة وقتيّة ؛ واذا بهم ، وقد جذبتهم الحياة الانجيلية الصرفة في بلاد الانجيل ، يمكثون ذواتهم بالله حتى نهاية حياتهم. ومن كان منهم على تعلّق شديد بجنسيّتهم كانوا يحتفظون بعواطفهم هذه في عزلتهم النسكية ، وذلك بانهم كانوا يجتمعون معاً في حلقات متمايزة بحسب لغتها غير منفصلة. وهكذا رأينا في دير مار تيوذوسيوس عدداً كبيراً من الارمن ، والقوقازيين ، ظلّوا متعلّقين بجنسيّاتهم الاصلية ؛ مما دفع المؤسس القديس الى ان بنى لهم معبدين خاصين. وفي دير مار سابا ايضاً ، كان الارمن يتلون فروضهم بلغتهم الخاصة . وكذلك القول عن الكرج

الذين كان لهم الحق نفسه... وفي أورشليم نرى الايبريين او الكرج يبنون، منذ العهد القديم، ديرًا خاصًا بهم. وكان للأزبين، اقاربهم وجيرانهم جنسًا ولغةً، دير في أورشليم ايضًا، رممه يوستنيانوس.

وهكذا كان لجميع البلاد المسيحية تقريبًا، في الاراضي المقدسة، طائفة رهبانية تظل على اتصال دائم ببلدها الاصلي، فتسهل على وطنيها زيارة اورشليم، اذ يعلمون بانهم يقيمون بين ابناء وطنهم، اذا ما أموا الاراضي المقدسة.

مار سابا

واذا خرجنا من اورشليم ومن بادية يهوذا، فاننا نرى فلسطين حافلة بالديورة. وقد قام منذ نحو ثلاثين سنة، احد علماء الانتقاليين (Assomptionistes) الاب ڤايه (S. Vailhé)، فنظم بها لائحة، غير مدعٍ انها كاملة. اما تواريخ هذه الديورة فتشابه كل التشابه احيانًا. اما اوفرها اهمية، وابعدها ذكرًا، واسطعها اثرًا هو ذلك الدير الذي عاش بعدها جميعًا، دير مار سابا.

لم يكن حظ مار سابا كحظ سينا من حيث الحظ والمناعة. الا انه ظل، في قساته المهيبة، واقفًا وقفة الجبار على صخره الرفيع، رامزًا الى دوره التاريخي، دور قلعة حصينة على ثغر طالما هددته الغزوات. بل شامخًا شموخ وكر النسر الصامد على مر الاجيال، تتناوب عليه الاخطار فتتحم حوائطه بالفواجع المؤلمة يعلق من اثرها شيء رائع على هذه الجدران الدكناء.

ولقد كان للدير القائم في قدرون ان يقاسي اياماً اشد جهومة من ايام الغزوات الهمجية. هي ايام النزاع الداخلي ومشاحنات المتوفيزيتية، والاوريجينية، والمجامع الثلاثة، وسائر تلك المخاصمات التي طالما اقلقت سكينة المتزلين. ولم يكن دير مار سابا ليقوم فيها داعًا برسالة السلام والمحبة التي فرضها عليه مؤسسه. وان الحقيقة السامية — وفي سبيل الوصول اليها قامت هذه الخصومات — لتفرض علينا الا نغضي الابصار عن هذه المعارك المؤلمة بانحطاطها. بيد انه اذا اردنا ان نعتاض عن نتائجها المؤسفة، فما علينا الا السمو فوق تلك المنازعات البشرية والنظر اليها من علُ، فلا نتسرع في الحكم، ولا نزيد في تبعة

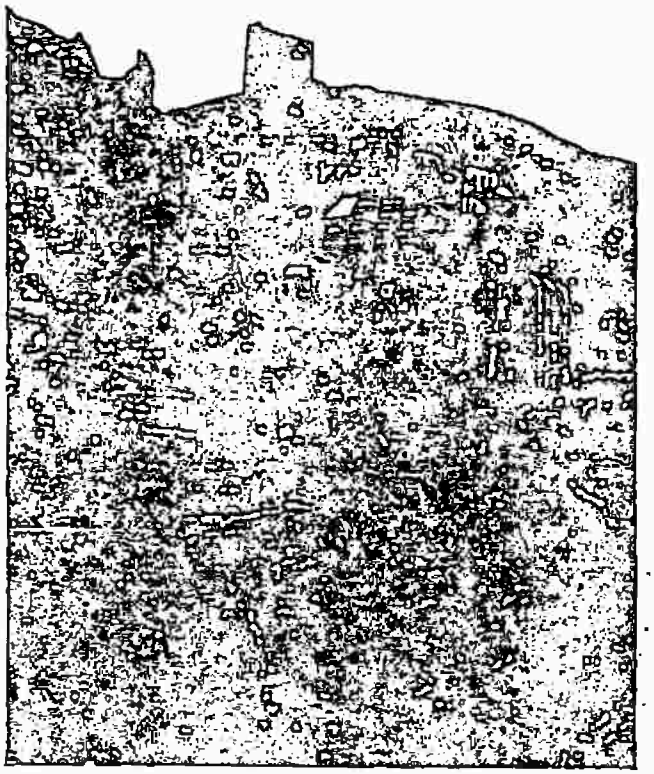

الرسم ٥ – دير مار سابا

الرسم ٦ – دير سيدنايا

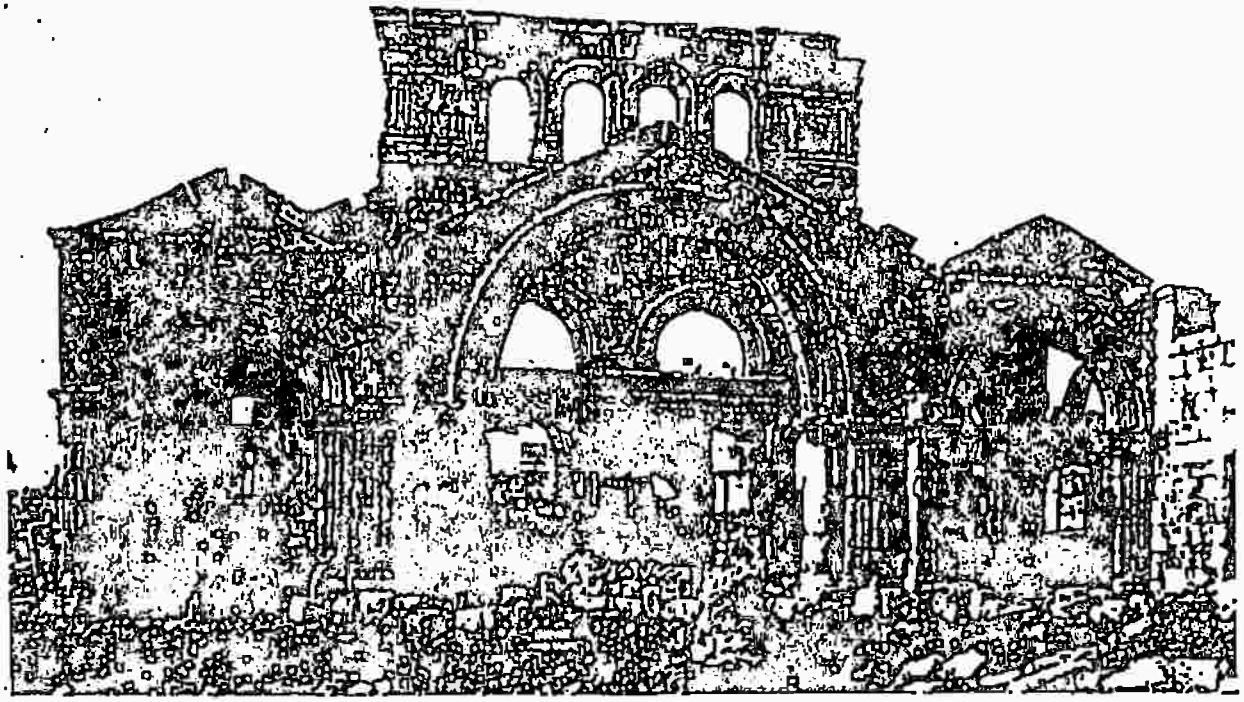

الرسم ٢ – كنيسة مار سمعان العمودي

المسؤولين ، ولا نوسع شقة الخلاف . فنتحقق اذ ذاك ان التقليد المسيحي لا تنقطع منافعه عن اولئك الذين يتصورون ، وان وهماً ، انهم يعملون على الدفاع عنه . . .

وهناك نقص آخر نراه واضحاً في سياسة مار سابا من حيث اخذها بالبيئة التي عاش فيها الرهبان ، ومن حيث العمل في سبيل الغاية الرهبانية السامية . نرى ذلك اذا ما عرفنا ان لا ذكر لمار سابا في الآداب السريانية ، حتى ان تراجم مؤلفيه واعوانه لم تُنقل الى اللغة التي عادت فأصبحت لغة البلاد . . . ولم يكن هذا عن سهو او نسيان ، بل عن قصد كان نتيجة معقولة لتعصب ارباب ذاك الدير للغة اليونانية . كانت هذه اللغة ، وما تجره من ادب وثقافة وعادات تفكيرية ، تسيطر سيطرة مطلقة على مار سابا ، حتى انها حالت ، او كادت ، بين رهبانه والاهتمام بتهذيب الشعب الفلسطيني . ودلالةً على هذا الأمر نكتفي بذكر حادثة تصوّر ادقّ تصوير ذاك التعصب الساذج لليونانية ، وما كان يولّده ، حتى في نفوس افاضل الرهبان ، من ازدراء للغة القوم السريانية :

اغار بعض شذّاذ العرب على الدير سنة ٧٩٧ فنهبوه ، وقتلوا عدداً من الرهبان ، عدّهم رفاقهم ، في ما بعد ، من جملة الشهداء . ثم قام راهب اسمه اسطفان — وهو غير اسطفان نسيب القديس يوحنا الدمشقي — وكتب ترجمة حياتهم . وفيها يذكر حادثةً عن راهب سوري من زملائه ، كان قد حاول طويلاً ان يُحسن لفظ اللغة اليونانية فلم يُفلح . ولم يكن الذنب ذنب ارادته ، انما لسانه الاعجمي لا يُحسن الا النطق بالمقاطع الضخمة ، والاصوات القاسية . . . وبينما الراهب المسكين يتذمّر من لسانه ، ويتأسف لحالته المنحطّة بين زملائه ارباب اللفظ اليوناني الحسن ، اذ ظهر له احد اولئك الشهداء ، واسمه انسطاس ، وقال مُشفقاً عليه : « مُدَّ لسانك ! » . ثم اخذ القديس خرقةً اتى بها من الجنة ، واقبل يمسح ذاك اللسان الاعجمي ، حتى انحلّت عقدته ، فأحسن النطق باليونانية[1] .

---

(١) *Anal. Boll.* 30 [1911] p. 408

لا شك في ان اهل البلاد لم يقرأوا تفصيل هذه الاعجوبة بكثير من الغبطة والحبور . بل اننا لا نستغرب اشمئزازهم من هذه الاساليب في ازدراء لغتهم وعنصرهم. اما ان يعمل الرهبان على تعليمهم اللغة اليونانية فأمر حسن ، واما ان يعملوا على جذبهم اليها وتحبيبهم لها فأمر أحسن . ولكن ما الفائدة من فرض احترامها عليهم بهذه القطرسة والوقاحة ؟ بمثل هذه الاساليب عمل بعض رهبان مار سابا ، وغيرهم من رهبان الديورة ، على وضع حواجز هائلة بينهم وبين الشعب.

ولكن يسرنا القول انه ، على رغم الراهب اسطفان وزملائه المتعصبين لليونانية ، كان مار سابا من الاوساط المهمة للآداب العربية المسيحية . فقد نُقلت فيه اقدم مخطوطة عربية للانجيل ، وهي لا تزال محفوظة حتى اليوم في المكتبة الڤاتيكانية. وفي الوقت نفسه تقريباً ، بين السنتين ٨٨٥ و٨٩٠ ، قام الراهب داود بن سينا البغدادي ، امين مكتبة الدير ، فنقل من اليونانية الى العربية ، حياة القديس ابراميوس[1].

وكذلك كان نصيب مار سابا وافراً في الادب البيزنطي ، ناشراً تأثيره على جميع انحاء الشرق المسيحي . فيه كان يرتل الالحان الشجية تزاماً المؤلف الموسيقي ، ورفيقه يوحنا الملحن ، وقد كادا يدركان شهرة الثابتة رومانوس ، فخر بيروت ، وأشهر من ترنم بالالحان الكنسية . وقد ذكرنا من مفاخر مار سابا ثاودوروس ابا قرة . ومن مفاخره الجليلة القديس يوحنا الدمشقي ، وتليه القديس اسطفان .

لو كان العالم متصفاً بالعدل والانصاف ، لكان ظهور رجل كالقديس يوحنا الدمشقي كافياً وحده لرفع مدينة ، بل بلد بكامله ، الى قمة المجد. بيد ان القداسة لا تهتم باحكام العالم . وها ان الكنيسة جعلت القديس المذكور في مصاف معلمي الكنلكة الشاملة ، وخصت به الفخر الجزيل بانه كان اول من جمع اقسام اللاهوت المبعثرة المشتتة في وحدة منظمة . فاستحق له هذا العمل المتصف بالجرأة والحكمة معاً ان يُلقب بأب الفلسفة الدينية . . . وان اختطاط الطريق

[1] راجع المشرق ٨ [١٩٠٥] ٢٥٨

الجديدة ، وسبق السائرين في القافلة البشرية ، ولو برحلة قصيرة ، لمن صفات الباقرة ، بل من رسالة المدعوين . . .

القديس سمعان العمودي

لقد تردّدتُ كثيرًا على الطريق بين مصر وفلسطين ، فلم اصل الى سورية الا متأخرًا . واني لاراكم تضجرون، في انتظاري، ضجرًا يروعني لعجزي عن ملاشاته .

بدأت الرهبانية في سورية ، كما بدأت في فلسطين تقريباً قبل مائة سنة . وهي تكاد تظهر في الانحاء المختلفة بعصر واحد . فتقوم الديورة حول انطاكية وباروّة (حلب) ، وفي بادية كلسيس ، حيث بدأ القديس ايرونيموس حياته الرهبانية ، وحيث وضع حادثة الراهب ملكوس ؛ كما تظهر في جوار إميس (حمص) ، وأفامية ، وابيفانية (حماه) ، وسائر مدن سورية وفنيقية . . . بيد ان المعلومات الصحيحة تعوزنا في تاريخ هذا النشوء والتطوّر . اما تلك الصور البديعة والاوصاف الجميلة التي ضمّنها تيودوري تاريخه الجميل ، فاكثرها يتعلّق بنساك وزهّاد ومعتزلين لم يتجاوز تأثيرهم مدخل مغارتهم او باب خيمتهم ، هذا ان كان لهم خيمة او مغارة . . . ولا شكّ في ان غيرهم كانوا يسكنون الديورة . ولكن اي ديورة ؟ كانوا جماعات قد توافق تقليد الطريقة الرهبانية وقد لا توافقه ، بل تكون احياناً غير ثابتة ، وهي اشبه باحياء العرب بل بتلك الجماعة المختلطة بين البدو والحضر التي قادها القديس اسكندر الاسيني على حدود فلسطين . فينبغي لنا ، والحالة هذه ، ان ننتظر ظهور القديس سمعان العمودي كي نتحقّق امرًا قريباً للطريقة الرهبانية في سورية، ومن ثمّ في الكنيسة الجامعة كلها .

شخصية القديس سمعان العمودي اشبه بتلك القمم الشامخة التي تجذب اليها نظر المراقب اتى اتجه في الافق البعيد . ولاشكّ في انكم تعرفون تفاصيل حياته البسيطة ، وسيرته النسكية العجيبة، فاعذروني ان ذكّرتكم بها بكلمة موجزة :

راعٍ صغير من ضواحي سيس او سيسان، على الحدود بين قليقية وسورية،

نشأ في اواخر القرن الرابع . وكان من اولئك الرعاة الشديدي التركيب ، القوي البنية ، الذين لا تزال تراهم يتخطون قمم جبالكم في الصباح والمساء . قناعة في الطعام والشراب ، جرأة وشجاعة ، قوة على احتمال المتاعب والمشقات ، كأنها من صفات هؤلاء الرجال الذين لا يكادون يألفون ، سرة في حياتهم ، سرافق الراحة في الحياة الحضرية . اصغى يوماً الى نداء الله ، فترك قطيعه . واقبل على ممارسة اشد التقشفات واصعبها ، عائشاً منفرداً في اول عهده ، ثم بين الرهبان . فادهشهم بزهده وصرامة حياته . ثم طرأ ما اوجدهم عليه فأبعدوه مدة ، ثم اعادوه ، ثم عاد الخلاف بينهم وبينه ، فتركهم نهائياً . ورجع الى حياته الفردية من تقشف الى تقشف ، حتى اختار مقاماً له تاج عود قديم . في هذا المكان الضيق المكشوف ، عاش القديس واقفاً ، صيفاً شتاء ، مدة ٤٨ سنة . وقد قرن بهذا العذاب الرائع ، وبجهود الصلوات الطويلة المستديمة ، تقشفات وإماتات تكاد تظهر فوق المقدرة البشرية ، منها انه كان يقضي مدة الصوم الكبير كلها ، لا يشرب ، ولا يأكل ، ولا يتكئ .

هذا ، وان العقل البشري ، تجاه هذه المعجزة الغريبة — وهي ادعى للعجب والاستغراب من كل ما نُسب الى القديس من معجزات مختلفة — يود ان يلتجئ الى الشك او الى الادعاء بالمبالغة ، على الاقل ، او الى الانكار المطلق . ولكن لا مجال لذلك . فان شهادة الشهود لا تُدفع ولا يمكن تجريحها . ويماثلها تأييداً للأمر ذاك الحدث التاريخي ، بل تلك الحركة العالمية التي احدثتها هذه المعجزة المستديمة مدة نصف قرن ، والتي لا تزال آثار نتائجها ظاهرة في اطلال « قلعة سمعان » الفخمة .

حول القديس ، كانت تتألب الجماهير من كل جنس وكل لغة في كل ساعة . هناك السوريون ، واليونان ، والعرب ، والارمن ، والكرج ، والحميريون ، يتزاحمون للتشبع بمشاهدة هذا الحادث الغريب . وفي رومة كان ارباب البضائع يطبعون صورة القديس العمودي تعويذةً على حوانيتهم . وكانت شهرته قد تجاوزت رومة الى بلاد غالية ، وبريطانية ، واسبانية . فأرسلت اليه القديسة جنفيف ، من باريس ، تزجو منه ان يباركها ويصلي من اجلها . وكان من ارغب الشعوب في

الازدحام حول العمود ، ومن اشدهم تعلقاً بالقديس ، واوفرهم حماسة في تقواهم ، الشعب البدوي . حتى امكن بعض المؤرخين ان ينسبوا الى تأثير القديس وتنزهه تنصر القبائل . وقد اصاب المؤرخ الكبير كورث (J. Kurth) ، اذ قال معبّرًا عن شعوره بقوة هذا التأثير : «لا عجب في من يتكلم بمثل هذه السلطة ، اذا ما ارتقى مثل ذاك المنبر ! » .

كان للقديس سمعان ان يبين بمثله مذهباً جديداً في التقشف والتنسك . وذلك منذ السنة ٤٦٠ ، اي بعد وفاته ببضعة ايام ، فقام احد تلاميذه ، دانيال البوري ، وصعد ، في القسطنطينية نفسها ، على عمود اقام عليه مدة ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة اشهر ، مثيراً العجب والاستغراب في عاصمة الامبراطورية .

ثم تتابع العموديون في الانحاء المختلفة ، من بلاد غالية — وقد شاهد فيها غريغوريوس التوري ، سنة ٥٨٥ ، عمودياً في إيڤرى (واسمها اليوم كلرمونيون من مقاطعة الاردين) — الى روسية حيث قتل القديس نقولا دي پرجسلاڤل على عموده سنة ١١٨٦[1] . حتى مصر نفسها ، على ما اظهرته اولاً من الانصراف عن هذه « البدعة » المخالفة تقاليد سيتي ، شاءت اخيراً ان يكون لها عموديها لئلا تظهر متأخرة عن سائر مناطق العالم المسيحي ، فكان لها ما ارادت ، انما ظل عموديها على ورق البردي فقط !

اما سورية فظلت ارض العموديين المختارة . وكان اشهرهم في تقليد القديس سمعان الاول ، سمعان آخر عُرف بالاصغر ، وتوفي في السنة ٥٩٢ ، بعد ان ظل على عموده مدة ٤٥ سنة في قمة جبل ، فوق مصب العاصي ، عُرف منذئذ « بالجبل العجيب » . في تلك الحقبة كان انشقاق المنوفيزيتيين السوريين قد تم ، وكان من نصيب المنشقين ان وضعوا يدهم على كنيسة القديس سمعان الاكبر ، فأعرض عن زيارتها الملكيون ، منصرفين الى مقام سمعان الأصغر . ولهذا نرى ان الكثيرين من مترجمي هذا القديس يالتزمون احياناً في وصف مظاهر الشبه التي وُجدت ، دون شك ، بينه وبين سابقه ؛ كما ان مهندسي كنيسة سمعان

(١ Marbynov, *Ann. graeco-slavic.*, p. 138

الأصغر على « الجبل العجيب » بذلوا جهدهم في تقليد تلك الرائعة الهندسية التي أقيمت على اسم العمودي الكبير . وان تكن كنيسة العمودي الأصغر اقل فخامة من سابقتها ، فقد ماثلتها في عمق تأثيرها على العالم المسيحي ، وفاقتها ، دون شك ، في دوام هذا التأثير ، ماثلة في نظر الكاثوليك ، مدة القرون الوسطى بكاملها ، المعبد الوحيد للقديس سمعان العمودي . ولما اغارت جيوش سعد الدولة على قلعة سمعان الاصلية فأخربتها سنة ٩٨٥ ، كان البيزنطيون قد صرفوا نظرهم عنها من مدة طويلة ، فنسوها تماماً .

الرهبانية في الكنائس المنفصلة

رسالات الرهبان في آسية الوسطى

لقد تجاوزنا مرارًا ، في هذا البحث ، تلك الحدود التي قسمت الكنيسة الشرقية ، منذ القرن الخامس ، الى قسمين متباينين . وكان ان المنوفيزيتيين ، بعد ان ثاروا مشاغبين على مجمع خلقيدونية نحو قرن ، نظموا صفوفهم في طائفة مستقلة منذ السنة ٥٤٣ . وظلت الرهبانية مزدهرة في هذه الكنيسة مدة طويلة . على ان النزاع المستديم بينهم وبين اخوانهم بالأمس ، يمنعنا درس رهبانيتهم الدرس الدقيق . وذلك ان الوثائق والمستندات الضرورية في مثل هذا الدرس مكتوبة كلها بروح العداء والتحامل وما الى ذلك مما تثيره الحروب الدينية . حتى ان اخبار قديسيهم ورهبانهم الاولى التي كتبها يوحنا الاسيوي ونشرها في تاريخه الكنسي ، واخبار يوحنا الميومي وزكريا الخطيب ، نراها كلها غارقة في جوّ من البغض والحقد يزيد في شدة ضغطه قسوة الشرطة الامبراطورية على المنوفيزيتيين . وقد يتوصّل الناقد الصبور الى تمييز الصحيح من الفاسد في هذه الاخبار . اما ان يتخذها شاهداً على عمل الرهبانية في التقريب بين الكنائس والشعوب فهي الغرابة بعينها !

من الحق ان الرهبانية اليعقوبية ادركت ، في ما بعد ، عهداً كان اوفر سكينة واطمئناناً . الا اننا لا نعرف تاريخاً مفصّلاً لمراكز الرهبان اذ ذاك سواء أنزلوا طورعبدين ، او جبل سنجار ، او الرها نفسها . انما نعرف عن طور

عبدين — وهو يمثل في الكنيسة اليعقوبية ما يمثله سينا وجبل آثوس — ان نصيبه كان وافرًا من آثر النزولات المغولية والسلجوقية وغيرها . ولما ضبط الاسقف يوحنا المارديني († ١١٧٥) شؤون كنيسته ، لم يكن باقيًا راهب واحد في ذاك الجبل المقدس . حتى اذا عاد الأمن المؤقت الى تلك البلاد ، وجب على الناس ان يهتموا باشياء اوفر ضرورة من اعادة جدران الديورة والمناسك[1] . على ان مترجمي الرهبان والقديسين لم يشاؤوا الا اعادة التقاليد النسكية فقاموا بمعجزات من الخيال والتصور . وهو يشبه ما حصل في بلاد الغرب ، في القرن العاشر ، على اثر غزوات النورمنديين ، عندما اخذ الرهبان يعملون على ترميم الكنائس والديورة ، وعلى ترميم اساطير مؤسسيهم بفن كان اضعف من فنهم البنائي . فنتج من ذلك مجموعات تافهة ستظل ، الى امد بعيد ، من عقبات النقد التاريخي لتراجم القديسين في العهد الكرولنجي . اما في طور عبدين فان انعدام كل تقليد ثابت يظهر ، دون شك ، من مسهلات البحث . فما كان من كتاب التراجم الا انهم اخذوا ينتظمون كل ما وافقهم من اسطورة مار اوجين النسطورية الى ذكريات تيودور ابو قرة الثابتة[2] ، ولعل اغرب هذه المخترعات ، وان لم تكن افقرها خيالًا ، اسطورة دير قرطمين العجيبة ! . . .

بقي ان نقول كلمة عن الرهبانية بين الناطرة ، وقد قاسوا اضطهادات الاكاحات الاسيوية عدة مرات ، فانقطعت صلتهم بالتقاليد المسيحية القديمة ، واخذت الرهبانية تضعف شيئًا فشيئًا حتى تلاشت من حيث كونها قوة على التقريب بين الشعوب المسيحية ، وان تكن ما انفكت ، في بعض مظاهرها ، تعمل على تقوية الاتحاد بين ابناء الطائفة نفسها ، وقد ظلت وحدها من بقايا كنيسة الفرس القديمة . وان لنا بآثار البطريرك تيموثاوس ، وتوما المراغي ، وعبديشوع النصيبي ، وايشوع دنح ، صفحات مؤثرة في تاريخ الرهبانية . على ان هذه التآليف تظهر كأنها كُتبت لفائدة المكاتب ليس غير ، بل كأنها تلك الصور المرسومة في المقابر تُشعر بكآبة شعب هاوٍ ، مضطهَد ، مظلوم ، يحسّ بهبوطه

١) راجع *Anal. Boll.* 27 [1908], p. 132 sqq.

٢) *Anal. Boll.* 48 [1930], p. 95

المتواصل ، فلا يرى أملاً في استعادة النور والحياة ، ولا يشغل مخيلته الا بتصور الماضي المجيد.

بيد ان للرهبانية النسطورية ، زمن عزها وازدهارها ، فخراً يحق لها ان تعتز به ، ألا وهو ذاك العمل المجيد على نشر الديانة المسيحية في آسية الوسطى. ولكنني اختصر الكلام في هذا الشأن لجهلي بتفاصيل ذاك العمل . وليس من السهل الاطلاع عليها . لانه ينبغي لنا ، اذ ذاك ، ان نقف على الوثائق والاصول المكتشفة منذ ثلاثين سنة بفضل روّاد تركستان الصينية ، بين قفار تكلامكانه حتى جوار السور العظيم . وقد كان من فضل هؤلاء الروّاد ان اعادوا الى النور مكاتب كاملة نامت فيها ، منذ اثني عشر قرناً ، وثائق كثيرة باللغات الصينية ، والمغولية ، والاويغورية ، وغيرها مكتوبة بلهجات وحروف دخلت في طور النسيان من زمن طويل حتى وجب على العلماء ان يضعوا لها اسماء جديدة . وعلى من يجهل هذه اللغات ، وما قيّدته تلك الوثائق ، ان يلجأ الى سلامة الصمت في ما خص الكنائس المسيحية القديمة في آسية الوسطى . وما نحن في معلوماتنا الضئيلة عن هذا العالم الفسيح الا اشبه بصبيان رفعوا اكمات وضيعة من رمل الشاطئ ، وصعدوا عليها يرمون بابصارهم افق الاوقيانوس السحيق : نعرف ان النصرانية تأصلت في مرو من بلاد خراسان ، ثم تتبعها في بعض المراحل ، ثم تكلّ عنها ابصارنا . على انها ثابت سيرها ، دون شك ، في مجاهل آسية المحفوفة بالاسرار والمخاطر ، فأنشأت في طريقها كنائس لم تكن عفت آثارها بعد في القرن الثالث عشر . وذلك بشهادة مرسلي الفرنسيسكان ، في ذاك العصر ، وقد وقفوا على اطلالها ، فكان لهم منها نقاط مهمة لتسهيل رسالتهم الجديدة في التبشير . ولقد كانت المؤلفات الطقسية التي تركها نساطرة آسية الوسطى ذخيرة ثمينة لاول رئيس اساقفة على باكين ، المكرّم يوحنا مونتي كرفينو ، مَن تتمنى ان تُطلع طوباويته في المستقبل القريب .